دراسات، علوم الشريعة والقانون، المجلّد 33، العدد 2، 2006

صناعةُ التاريخ في القُرآن
"تأسيس الدول ومعاول هدمها"

*أمين محمد المناسية**

ملخـص

يهدف هذا البحث إلى معالجة حال الأمة، لتعود لها عزتها وكرامتها، حيث وضحت فيه أسباب الضياع والتدهور مستقاة من الماضي أحداثه ونتائجه. ووضعت وسائل العلاج للنهوض بالأمة واستعادة مجدها وكرامتها، مدعمة بآراء العلماء كالشاطبي، وابن خلدون، مع وضع دستور مستقى من سورة قريش للإصلاح والمعالجة وفقاً لما توصل إليه الباحث.

الكلمـات الدالـة: صناعة التاريخ، النهوض بالأمة، وضع دستور.

المقدمـــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ.

إن القرآن الكريم - كلام الله تعالى- الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق على كثرة الرد، فيه خبر الأولين، ونبأ المحدثين، وأسرار الكون، وعجائب الزمان، وسنن الله التي لا تتبدل، ونظامه الذي لا يتحول، فمن نظر فيه بعين البصير، وفكر المستنير، وحكمة العاقل، وذكاء اللبيب، عرف أن لكل داء دواء، وأن لكل قوم بلاء، فكن من أهل هذه الصفات، ودقق بثاقب الفكر في الآيات، فإن لك فيها دستورا يسير عليه الناس، دعاة ومدعوين، وممالك وأوطاناً. فإن النجاة تحتاج إلى منهاج، وإن الكرامة تحتاج إلى تخطيط، وسأحاول بإذن الله تعالى تجلية ذلك وتوضيحه.

إذا نظر الناظر إلى القرآن الكريم الذي احتوى بذور العلوم وأحداث التاريخ فسيجد الدلالات والتنبيهات التي تلفت النظر، وتنبه العقل، وتشحذ العواطف والهمم، وتفجر الطاقات، وتأخذ بيد من يريد الخير، وتعلمه الأسس، وترشده إلى طرق الفوز، وهذا أمر يطول ذكره. ولكنني بصدد الخوض في جانب صناعة التاريخ، لا كتابته لاستعادة الكرامة لا للفخر بالأمجاد الماضية والقعود مع الذكريات، بأخذ الإضاءة من القرآن مع الالتفات إلى ما قدمه الإنسان على مر الزمان؛ فالمؤرخون المسلمون صنفان، صنف روى الخبر واختبره وحققه، وصنف فسر وربط وقنن وانتقد وحال؛ فمن الصنف الأول ابن جرير الطبري في كتابه الرسل والملوك، ومن الصنف الثاني ابن خلدون في مقدمته التي سبق غيره بما جاء فيها حتى عدَ بحق أبا لعلم الاجتماع. وقد اشتمل القرآن على الأمرين، وزاوج بينهما، وقدم الدليل لكافة الأطراف مع اختلاف المطالب والمقاصد، وقد لا أكون مغالياً إذا قلت إن القرآن قد تحدى الخلق تاريخياً، فأعجزهم. وسأجلي من خلال الخطة بذور الأفكار التي يعتصرها فكري، لينبئ عنها قلمي بما أخطه بين يديك لتحكم وتقرر. وهكذا جاءت مراحل منهجية البحث على النحو التالي:

المبحث الأول: القرآن والتاريخ البشري.

- **المطلب الأول:** ما المقصود بصناعة التاريخ؟
- **المطلب الثاني:** عوامل الهدم والسقوط.
- **المطلب الثالث:** الترف في العيش وعلاقته بالحكم. رأي ابن خلدون؛ رأي الشاطبي.
- **المطلب الرابع:** خطورة سيطرة رأس المال على الحكم، وما يتبع ذلك من انحلال وسقوط.

المبحث الثاني: عوامل البناء وصنع التاريخ المشرف.

- **المطلب الأول:** التوحيد والوحدة. وهذا يتجلى بالمزاوجة بين الزمان والمكان والأشخاص.

---

* كلية الشريعة، جامعة مؤتة، الكرك، الأردن. تاريخ استلام البحث 2005/3/6، وتاريخ قبوله 2005/12/5.

© 2006 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

- **المطلب الثاني:** الاقتصاد. وهذا يتجلى بالمزاوجة بين الإنسان والمال.
- **المطلب الثالث:** العبادة والتقوى. وهذا يتجلى بالخضوع والطاعة وعدم الخروج عن الثوابت.
- **المطلب الرابع:** الحصانة الغذائية والأمنية. وهذا يتجلى بالمزاوجة بين كل ما تقدم مع التوكل على الله.

الخاتمة والنتائج.

المبحث الأول
القرآن والتاريخ البشري

لا شك في أن ابن جرير في كتابه تاريخ الرسل والملوك قد استكمل "ما قام به المؤرخون قبله، كاليعقوبي، والبلاذري، والواقدي، وابن سعد. ومهد السبيل لمن جاء بعده كالمسعودي، وابن مسكويه، وابن الأثير، وابن خلدون"(1).

ولا بد من القول إن ابن جرير روى الأخبار بأسانيدها متبرئاً من النقصان الذي يصيبها حيث برأ ساحته من ذلك؛ إذ كان همه نقل ما وصل إليه(2). وعليه فهو لم يشتغل بالتحقيق لتلك الأخبار بينما نرى ابن خلدون لا يسلك المسلك نفسه بل يحاول كشف دسائس المتطفلين عن طريق الوهم أو الابتداع ورفضها ودفعها(3). ولعل هذا التحقيق والكشف هو الذي رفع من مكانة ابن خلدون(4).

لقد حفل القرآن الكريم بآيات عديدة، وأخبار قديمة وجديدة، تشكل بمجموعها بياناً شافياً وبرهاناً وافياً عن تاريخ البشر. وسوف تساهم المطالب التالية في توضيح ذلك.

المطلب الأول
ما المقصود بصناعة التاريخ؟

سؤال يحتاج إلى إجابة تكشف الهدف الذي من أجله وجب أن نصنع تاريخنا، ونرفع رؤوسنا، ونستعيد مجدنا وعزتنا. إن الأمم القوية هي الأمم التي تصنع التاريخ، فتحفظ كرامتها، وتخلد ذكرها، وتكون ضياء يضيء دروب السالكين عبر متاهات التاريخ، ودهاليز الأمم، و مصائد الأعداء.

إن الأمم العظيمة التي خلدت عبر مسيرة التاريخ، هي تلك الأمم التي أنجبت رجالاً عظماء كانوا صناعاً ومهندسين في تلك المسيرة، لم يكونوا وحدهم، ولكن أيدتهم جموع أممهم فلم تخذلهم، وقفوا معهم ولم يقفوا ضدهم، ساندوهم ولم يكونوا صنيعة للأعداء.

إن الأمة التي تريد صناعة تاريخها تلد العظماء، وتثق بهم، وتعتمد على نفسها في جل قضاياها. أمة لا تعيش على التواكل والفتات، أمة لا تعرف الخور والسكون، أمة دم أفرادها لا يساوم عليه ولا يساويه ثمن، أمة فردها أمة، وهدفها القمة. ما تقدم من أفكار يدعم صناعة التاريخ، وبغير ذلك تذهب الريح، وتنتهك المقدسات والأعراض، وتمرغ الكرامة في وحل الذلة والخيانة.

وعليه فصناعة التاريخ تعني باختصار: الوصول إلى السيادة والريادة وقيادة العالم.

المطلب الثاني
عوامل الهدم والسقوط

كثيرة هي عوامل الهدم والسقوط وليس بمقدوري إفاضة الحديث عنها في هذا البحث الصغير، ولكنني سأكتفي بما يترجح عندي أنه الأهم للتنبيه عليه، وتحذير بناة التاريخ من الغفلة عنه. فمن ذلك ما يلي:

1. الفرقة والاشتغال بتوافه الأمور من حب الزعامة والسلطة.

قال الله تعالى: ﴿واعتَصموا بِحبل الله جميعاً ولا تَفَرقُوا واذْكُروا نعمتَ الله علَيكُم إِذْ كُنْتُم أَعداء فَألفَ بين قُلُوبِكُم فَأَصبحتُم بِنعمته إِخْواناً وكُنْتُم علَى شَفَا حفْرة من النارِ فَأَنْقَذَكُم منْها كَذَلِك يبين الله لَكُم آياته لَعلكُم تَهتَدون﴾ (آل عمران:103)

وقال ﷻ: ﴿وأَطيعوا الله ورسولَه ولا تَنَازعوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهب رِيحكُم واصبِروا إِن الله مع الصابِرِين﴾ (الأنفال:46).

فأمر تعالى المسلمين بالثبات عند قتال الأعداء والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا ولا ينكلوا ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال ولا ينسوه، بل يستعينوا به ويتوكلوا عليه ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوه ورسوله في حالهم تلك، فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضاً فيختلفوا فيكون سبباً لفشلهم، {وتذهب ريحكم} أي قوتكم ووحدتكم، وما كنتم فيه من الإقبال، {واصبروا إن الله مع الصابرين} وقد كان للصحابة رضي الله عنهم في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله، وامتثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم، ولا يكون لأحد ممن بعدهم، فإنهم ببركة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وطاعته فيما أمرهم، فتحوا القلوب والأقاليم شرقاً وغرباً في المدة اليسيرة، مع قلة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم، من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش، وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم. قهروا الجميع حتى علت كلمة الله، وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في

مشارق الأرض ومغاربها، في أقل من ثلاثين سنة، فرضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين(5).

2. عدم التزام المنهج الرباني في الحكم والتوجيه.

قال الله تعالى: ﴿ومن أَعرض عن ذكْرِي فَإِن لَه معيشَةً ضنْكاً ونَحشُره يوم الْقيامة أَعمى(124) قَالَ رب لِم حشَرتَني أَعمى وقَد كُنْتُ بصيراً(125) قَالَ كَذَلك أَتَتْك آياتُنَا فَنَسيتَها وكَذَلك الْيوم تُنْسى﴾ (طـه:124-126).

"ومن أعرض عن ذكري" أي: كتابي الذي يتذكر به الإنسان جميع المطالب العالية، وأن يتركه على وجه الإعراض عنه، أو ما هو أعظم من ذلك، بأن يكون على وجه الإنكار له، والكفر به "فإن له معيشة ضنكا" أي: فإن جزاءه، أن نجعل معيشته ضيقة شاقة، ولا يكون ذلك إلا عذابا. وفسرت المعيشة الضنك، بعذاب القبر، وأنه يضيق عليه قبره، ويحصر فيه، ويعذب، جزاء لإعراضه عن ذكر ربه. والثانية قوله تعالى: "ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم" الآية. والثالثة قوله: "ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر". والرابعة قوله عن آل فرعون "النار يعرضون عليها غدوا وعشيا" الآية. والذي دعا من فسرها بعذاب القبر فقط من السلف، وقصرها على ذلك - والله أعلم- آخر الآية، ذلك أن الله ذكر في آخرها عذاب يوم القيامة. وبعض المفسرين، يرى أن المعيشة الضنك، عامة في دار الدنيا، بما يصيب المعرض عن ذكر ربه، من الهموم، والغموم، والآلام، التي هي عذاب معجل، وفي دار البرزخ، وفي الدار الآخرة، لإطلاق المعيشة الضنك وعدم تقييدها. "ونحشره" أي: هذا المعرض عن ذكر ربه "يوم القيامة أعمى" البصر على الصحيح، كما قال تعالى "ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما". قال على وجه الذل، والمراجعة، والتألم، والضجر من هذه الحالة "رب لم حشرتني أعمى وقد كنت "في دار الدنيا" بصيرا "فما الذي صيرني إلى هذه الحالة البشعة؟" قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها "بإعراضك عنها" وكذلك اليوم تنسى"أي: تترك في العذاب. فأجيب، بأن هذا هو عين عملك، والجزاء من جنس العمل، فكما عميت عن ذكر ربك، وغشيت عنه، ونسيته، ونسيت حظك منه، أعمى الله بصرك في الآخرة، فحشرت إلى النار أعمى، أصم، أبكم، وأعرض عنك، ونسيت في العذاب."وكذلك" أي: هذا الجزاء" نجزي" "من أسرف" بأن تعدى الحدود، وارتكب المحارم وجاوز ما أذن له "ولم يؤمن بآيات ربه" الدالة على جميع مطالب الإيمان دلالة واضحة صريحة، فالله لم يظلمه ولم يضع العقوبة في غير محلها وإنما السبب إسرافه وعدم إيمانه "ولعذاب الآخرة أشد" من عذاب الدنيا أضعافا مضاعفة "وأبقى"، لكونه لا ينقطع، بخلاف عذاب الدنيا فإنه منقطع، فالواجب الخوف والحذر من عذاب الآخرة(6).

وقال ﷻ: ﴿إِنا أَنْزلْنَا التوراةَ فيها هدى ونُور يحكُم بِها النبِيون الذين أَسلَموا لِلذين هادوا والربانيون والأَحبار بِما استُحفظُوا من كتَابِ الله وكَانُوا علَيه شُهداء فَلا تَخْشَوا الناس واخْشَونِ ولا تَشْتَروا بِآياتي ثَمناً قَليلاً ومن لَم يحكُم بِما أَنْزلَ الله فَأُولَئِك هم الْكَافرون﴾ (المائدة:44).

وقال ﷻ: ﴿وكَتَبنَا علَيهِم فيها أَن النفْس بِالنفْسِ والْعين بِالْعينِ والأَنْفَ بِالأَنْف والأُذُن بِالأُذُنِ والسن بِالسن والْجروح قصاص فَمن تَصدقَ بِه فَهو كَفارةٌ لَه ومن لَم يحكُم بِما أَنْزلَ الله فَأُولَئِك هم الظالِمون﴾ (المائدة:45).

وقال ﷻ: ﴿ولْيحكُم أَهلُ الإِنْجِيلِ بِما أَنْزلَ الله فيه ومن لَم يحكُم بِما أَنْزلَ الله فَأُولَئِك هم الْفَاسقُون﴾ (المائدة:47).

واعلم أن تحرير المقام في هذا البحث أن الكفر والظلم والفسق كل واحد منها ربما أطلق في الشرع مراداً به المعصية تارة، والكفر المخرج من الملة تارة أخرى {ومن لم يحكُم بِمآ أَنزلَ لله} معارضةً للرسل وإبطالاً لأحكام الله فظلمه وفسقه وكفره كلها كفر مخرج عن الملة، {ومن لم يحكُم بِمآ أَنزلَ لله} معتقداً أنه مرتكب حراماً فاعل قبيحاً فكفره وظلمه وفسقه غير مخرج عن الملة، وقد عرفت أن ظاهر القرآن يدل على أن الأولى في المسلمين، والثانية في اليهود، والثالثة في النصارى، والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، وتحقيق أحكام الكل هو ما رأيته، والعلم عند الله تعالى(7).

وما جرى للأمم السابقة كعاد وثمود وقوم لوط لأعظم برهان على ما نقول.

3. التخلف عن ركب الأمم المتحضرة في التكنولوجيا والمعلومات.

وقال ﷻ: ﴿وما أَرسلْنَا من قَبلك إِلاَّ رِجالاً نُوحي إِلَيهِم فَاسأَلُوا أَهلَ الذِّكْرِ إِن كُنْتُم لا تَعلَمون(43) بِالْبينَات والزبرِ وأَنْزلْنَا إِلَيك الذِّكْر لِتُبين لِلناسِ ما نُزلَ إِلَيهِم ولَعلَّهم يتَفَكَّرون﴾ (النحل:43- 44).

"فاسألوا أهل الذكر" قال سفيان: يعني مؤمني أهل الكتاب. وقيل: المعنى فاسألوا أهل الكتاب فإن لم يؤمنوا فهم معترفون بأن الرسل كانوا من البشر. روي معناه عن ابن عباس ومجاهد. وقال ابن عباس: أهل الذكر أهل القرآن. وقيل: أهل العلم، والمعنى متقارب. "إن كنتم لا تعلمون" فهم يخبرونكم بأن جميع الأنبياء كانوا بشرا(8).

وأهل الذكر في كل فن هم من أتقنوا ذلك الفن. فالقعود لا يرفع راية، ولا يوصل إلى غاية.

4. الخيانة والعمالة والذيلية والتبعية.

فإن الخيانة للأمة، وعدم الإخلاص في الانتماء لها، ومداهنة الأعداء، وتمكينهم من رقاب المسلمين، وعدم الاستغناء عن الأجنبي، لا يزيد الأمة إلا ضعفاً على ضعف.

5. التخلف الاقتصادي بفروعه المختلفة.

لا بد من التشمير ونبذ الكسل، والعمل الجاد الدؤوب في كافة فروع الاقتصاد لتستغني الأمة عن الغير، فترفع رأسها، وتحفظ ماء وجهها. قال ﷻ: ﴿وقُلِ اعملُوا فَسيرى الله عملَكُم ورسولُه والمُؤْمِنُون وستُردون إِلى عالِمِ الغَيبِ والشهادة فَينَبئُكُم بِما كُنْتُم تَعملُون﴾ (التوبة:105).

قال مجاهد: هذا وعيد لهم. قيل: رؤية النبي، صلى الله عليه وسلم، بإعلام الله تعالى إياه، ورؤية المؤمنين بإيقاع المحبة في قلوبهم لأهل الصلاح، والبغضة لأهل الفساد(9).

وهذا النص وإن كان ظاهره العمل الديني فإنه يشمل العمل الدنيوي المفيد النافع. قال ﷻ: ﴿الذي أَطْعمهم من جوعٍ وآمنَهم من خَوف﴾(قريش:4) . فأنت لا تأمن الجوع إلا إذا اكتفيت ذاتياً.

6. التخلف في التصنيع الحربي والسلمي.

وهذه مكملة لسابقتها فالله قد قال: ﴿الذي أَطْعمهم من جوعٍ وآمنَهم من خَوف﴾ (قريش:4). فمن يصنع سلاحه بيده يأمن شر غيره، والذي يعيش عالة على الغير يبقى أبد الدهر بين الحفر. والإشارة تغني عن العبارة لمن اعتبر.

7. التكبر على العمل بكافة وجوهه.

العمل بكافة أصنافه المباحة لا عيب فيه ولا عار. بل فيه الشرف والعزة والكرامة . فما الذي يضير الشخص أن يعمل بأي عمل وإن كان لا يناسبه في بداية الطريق حتى يجد المناسب؟ فقد قال رسول الله ﷺ: "لأن يذهب أحدكم إلى الجبل فيحتطب ويبيع فيأكل ويتصدق خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه"(10) فإن ثقافة العيب قادت الأمة إلى الخراب، فلو أن الناس فهموا ذلك لاحتفظوا بثرواتهم ومقدراتهم التي يأتي لها الموظف من البلاد الآخر يعمل بها ويقبل بها، فتزداد البطالة بين أبناء الوطن، وتذهب الأموال إلى الخارج مما يزيد الوضع سوءاً.

المطلب الثالث

الترف في العيش وعلاقته بالحكم. رأي ابن خلدون، ورأي الشاطبي

رغد العيش نعمة من الله تستدعي شكر المنعم وطاعته، ولكن طبيعة النفس إذا تنعمت مالت إلى الدعة، فتنازعها الهوى والشيطان وقوة الشهوة، فمن لم يتنبه لذلك فاته قطار النجاة إلا من رحم الله تعالى: ﴿كلاَّ إِن الإِنْسان لَيطْغَى .أَن رآه استَغْنَى﴾ (العلق:6-7). ولذلك فإن الله قد سن محطات للتوعية والتنبيه؛ منها:

1. دفع الناس بعضهم ببعض حتى يذهب الزبد، ويبقى ما ينفع الناس. قال تعالى:﴿ ولَولا دفْع اللّه الناس بعضهم بِبعضٍ لَفَسدت الأَرض ولَكن اللّه ذُو فَضلٍ علَى الْعالَمين. تلْك آياتُ اللّه نَتْلُوها علَيك بِالْحق وإِنك لَمن الْمرسلين﴾ (البقرة:251-252).

وأخرج البخاري ومسلم وابن ماجة عن معاوية بن أبي سفيان "سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس"(11).

وأخرج مسلم والترمذي وابن ماجة عن ثوبان أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك"(12).

وأخرج البخاري ومسلم عن المغيرة بن شعبة سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: "لا يزال قوم من أمتي ظاهرين على الناس حتى يأتيهم أمر الله وهم ظاهرون"(13).

وأخرج ابن ماجة عن أبي هريرة أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال: "لا تزال طائفة من أمتي قوامة على أمر الله عز وجل لا يضرها من خالفها"(14).

2. التنبيه على مقالة المترفين لأنها ليست في مصلحة المجتمع. فقد قال الله تعالى: ﴿وإِذَا أَردنَا أَن نهلك قَريةً أَمرنَا مترفيها فَفَسقُواْ فيها فَحق علَيها الْقَولُ فَدمرنَاها تَدميرا﴾ (الإسراء:16).

"فأولى التأويلات تأويل من قال: أمرنا أهلها بالطاعة فعصوا وفسقوا فيها، فحقّ عليهم القول: لأن الأغلب من معنى أمرنا: الأمر، الذي هو خلاف النهي دون غيره، وتوجيه معاني كلام الله جلّ ثناؤه إلى الأشهر الأعرف من معانيه، أولى ما وجد إليه سبيل من غيره"(15).

3. الاعتراض وتعليق كل ما يجري على القدر، وتحميله تبعة ذلك. قال تعالى:﴿وما أَرسلْنَا في قَرية من نذيرٍ إِلاَّ قَالَ مترفُوها إِنا بِما أُرسلْتُم بِه كَافرون﴾ (سبأ:34).

"يخبر تعالى عن حالة الأمم الماضية المكذبة للرسل، أنها

كحال هؤلاء الحاضرين المكذبين لرسولهم محمد -صلى الله عليه وسلم- وأن الله إذا أرسل رسولا في قرية من القرى، كفر به مترفوها، وأبطرتهم نعمتهم، وفخروا بها "وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا" أي: ممن اتبع الحق "وما نحن بمعذبين" أي: أولا، لسنا بمبعوثين، فإن بعثنا، فالذي أعطانا الأموال والأولاد في الدنيا، سيعطينا أكثر من ذلك في الآخرة ولا يعذبنا. فأجابهم الله تعالى، بأن بسط الرزق وتضييقه، ليس دليلا على ما زعمتم؛ فإن الرزق تحت مشيئة الله، إن شاء بسطه لعبده، وإن شاء ضيقه "وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم" إلى الله "زلفى" وتدني إليه. وإنما الذي يقرب منه زلفى، الإيمان بما جاء به المرسلون، والعمل الصالح الذي هو من لوازم الإيمان، فإن أولئك، لهم الجزاء عند الله تعالى مضاعفا الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، لا يعلمها إلا الله. "وهم في الغرفات آمنون" أي: في المنازل العاليات المرتفعات جدا، ساكنين فيها، مطمئنين، آمنين من المكدرات والمنغصات، لما فيه من اللذات وأنواع المشتهيات، وآمنين من الخروج منها، أو الحزن فيها "والذين يسعون في آياتنا معاجزين" أي: على وجه التعجيز لنا ولرسلنا، والتكذيب. "أولئك في العذاب محضرون" تحضرهم الزبانية فلا يجديهم ما عولوا عليه نفعا. ثم أعاد أنه "يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له" ليرتب عليه قوله "وما أنفقتم من شيء" نفقة واجبة، أو مستحبة، على قريب، أو جار، أو مسكين، أو يتيم، أو غير ذلك "فهو" تعالى "يخلفه" فلا تتوهموا أن الإنفاق مما ينقص الرزق، بل وعد بالخلف للمنفق، الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر "وهو خير الرازقين" فاطلبوا الرزق منه، واسعوا في الأسباب التي أمركم بها(16).

وقال تعالى:﴿وقَالُوا لَو شَاء الرحمن ما عبدنَاهم ما لَهم بِذَلِك من علْمٍ إِن هم إِلاَّ يخْرصون. أَم آتَينَاهم كتَابا من قَبله فَهم بِه مستَمسكُون. بلْ قَالُوا إِنا وجدنَا آباءنَا علَى أُمة وإِنا علَى آثَارِهم مهتَدون. وكَذَلِك ما أَرسلْنَا من قَبلك في قَرية من نذيرٍ إِلاَّ قَالَ مترفُوها إِنا وجدنَا آباءنَا علَى أُمة وإِنا علَى آثَارِهم مقْتَدون﴾ (الزخرف:20-23).

وقال أيضاً: ﴿أَولَما أَصابتْكُم مصيبةٌ قَد أَصبتُم مثْلَيها قُلْتُم أَنى هذَا قُلْ هو من عند أَنْفُسكُم إِن اللّه علَى كُلِّ شَيء قَدير. وما أَصابكُم يوم الْتَقَى الْجمعانِ فَبِإِذْنِ اللّه ولِيعلَم الْمؤْمنين. ولْيعلَم الذين نَافَقُواْ وقيلَ لَهم تَعالَواْ قَاتلُواْ في سبِيلِ اللّه أَوِ ادفَعواْ قَالُواْ لَو نَعلَم قتَالاً لاتبعنَاكُم هم لِلْكُفْرِ يومئِذ أَقْرب منْهم لِلإِيمانِ يقُولُون بِأَفْواههِم ما لَيس في قُلُوبِهِم واللّه أَعلَم بِما يكْتُمون. الذين قَالُواْ لإِخْوانهِم وقَعدواْ لَو أَطَاعونَا ما قُتلُوا قُلْ فَادرؤُوا عن أَنفُسكُم الْموتَ إِن كُنتُم صادقين﴾ (آل عمران:165-168).

4. التحذير من أكل أموال الناس بالباطل. قال سبحانه: ﴿ولاَ تَأْكُلُواْ أَموالَكُم بينَكُم بِالْباطلِ وتُدلُواْ بِها إِلَى الْحكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا من أَموالِ الناسِ بِالإِثْمِ وأَنتُم تَعلَمون﴾ (البقرة:188).

من أجل ما تقدم من توجيه حذر الله تعالى من خطورة المال على الحكم، عندما يستخدم وسيلة اختيار لأهل الحل والعقد، ووسيلة لتغيير الموازين، وقلب الحقائق، والإعانة على الباطل.

رأي ابن خلدون وما يؤخذ منه

"إن فحول المؤرخين في الإسلام قد استوعبوا أخبار الأيام وجمعوها. وخلطها المتطفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها، واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتبعوها وأدوها كما سمعوها، ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأحوال، ولم يراعوها، ولا رفضوا ترهات الأحداث، ولا دفعوها، فالتحقيق قليل"(17).

ففي كلام ابن خلدون إشارة إلى فحول المؤرخين ولا شك في أن الإمام الطبري على رأسهم، ولكن نظرة ابن خلدون تخطت مرحلة ابن جرير؛ فالأول جمع والثاني حقق ودقق. وفائدة هذا الكلام، وما يؤخذ منه هنا في هذا البحث أن أحداث التاريخ صور وعبر من الماضي وما جرى فيه، فالعاقل من يتجنب ويتعظ بغيره، والغافل من تمر به الأحداث فتأخذه كما أخذت من سبقه، وعليه عد ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع، ومن أجل ذلك جاءت شهرته، فالذي يريد الاستفادة من الماضي للحاضر لا بد له من أمرين:

الأول: الخبر؛ اختباره وتدقيقه.

والثاني: تفسير الخبر وربطه بالأحداث واستخراج النتائج والقوانين التي تكون أساساً يسير عليه الحاضر واللاحق. فانظر قول الله تعالى: ﴿نَحن نَقُص علَيك أَحسن الْقَصصِ بِما أَوحينَا إِلَيك هذَا الْقُرآن وإِن كُنتَ من قَبله لَمن الْغَافلين﴾ (يوسف:3) ويقول تعالى: ﴿وكُلا نقُص علَيك من أَنباء الرسل ما نُثَبتُ بِه فُؤَادك وجاءك في هذه الْحق وموعظَةٌ وذكْرى لِلْمؤْمنين﴾ (هود:120) ويقول تعالى: ﴿هذَا بلاَغٌ للناسِ ولِينذَرواْ بِه ولِيعلَمواْ أَنما هو إِلَه واحد ولِيذكر أُولُواْ الأَلْبابِ﴾ (إبراهيم:52) ويقول تعالى: ﴿وإِنه لَذكْر لك ولِقَومك وسوفَ تُسأَلُون﴾ (الزخرف:44) ويقول تعالى: ﴿واذْكُر أَخَا عاد إِذْ أَنذَر قَومه بِالأَحقَاف وقَد خَلَتْ النذُر من بينِ يديه ومن خَلْفه أَلاَّ تَعبدوا إِلاَّ الله إِني أَخَافُ

علَيكُم عذَاب يومٍ عظيمٍ﴾ (الأحقاف:21) ويقول تعالى: ﴿الله نَزلَ أَحسن الْحديث كتَابا متَشَابِها مثَاني تَقْشَعر منْه جلُود الذين يخْشَون ربهم ثُم تَلين جلُودهم وقُلُوبهم ِإلَى ذكْرِ الله ذَلِك هدى الله يهدي بِه من يشَاء ومن يضلل الله فَما لَه من هاد﴾ (الزمر:23). فليس ذلك إلا للتأسيس والتنبيه والاتعاظ.

وأما توثيق الخبر، فإن القرآن موثق الخبر، فكتابته في عهد النبي ﷺ آية آية وترتيبه بأمر الرسول ﷺ كما يأمره الوحي، ثم الصحابة من بعده، كل ذلك يتفق مع قوله تعالى: ﴿إِنا نَحن نَزلْنَا الذكْر وإِنا لَه لَحافظُون﴾ (الحجر9).

وكذلك الحال بالنسبة لعلم الحديث الذي اهتم فيه مؤسسوه بعلم الإسناد الذي لم يكن معروفاً في الأمم السابقة، فدققوا الحديث ووثقوه. وكذلك علم الجرح والتعديل الذي لم يخشوا فيه لومة لائم، رائدهم فيه قول الله تعالى: ﴿ولاَ يجرِمنكُم شَنَآن قَومٍ علَى أَلا تَعدلُواْ اعدلُواْ هو أَقْرب ِللتقْوى واتقُواْ اللّه ِإن اللّه خَبِير بِما تَعملُون﴾ (المائدة:8).

حتى أنهم اشترطوا للعدالة شروطاً كثيرة، واكتفوا في الجرح بشرط واحد، وهو ثبوت القدح والطعن، وإضافة إلى ذلك قدموا الجرح على التعديل زيادة في الحيطة والحذر.

وكذلك كان حال علماء الإسلام في التحقيق والتوثيق والتدقيق، فحرروا العقيدة وبينوا أنها مبنية على التوحيد، وتبرئة الأنبياء والصالحين من التهم الباطلة، وأن القرآن هو المهيمن على الكتب السابقة حجتهم في ذلك الآيات القرآنية مثل قوله تعالى في التوحيد: ﴿اللّه لا ِإلَه ِإلا هو الْحي الْقَيوم (2) نَزلَ علَيك الْكتَاب بِالْحق مصدقاً لما بين يديه وأَنزلَ التوراةَ والإِنجِيلَ﴾ (آل عمران:3)، وقوله في التبرئة: ﴿وبِكُفْرِهم وقَولِهم علَى مريم بهتَانًا عظيما﴾ (النساء:156) وقوله في الهيمنة: ﴿وأَنزلْنَا ِإلَيك الْكتَاب بِالْحق مصدقًا لما بين يديه من الْكتَابِ ومهيمنًا علَيه فَاحكُم بينَهم بِما أَنزلَ اللّه ولاَ تَتبِع أَهواءهم عما جاءك من الْحق ِلكُل جعلْنَا منكُم شرعةً ومنْهاجا ولَو شَاء اللّه لَجعلَكُم أُمةً واحدةً ولَكن ليبلُوكُم في مآ آتَاكُم فَاستَبِقُوا الخَيرات ِإلَى الله مرجِعكُم جميعا فَينَبئُكُم بِما كُنتُم فيه تَخْتَلفُون﴾ (المائدة:48).

كل هذا يجعلنا نطالب الأجيال بأن تستفيق وتصحو فإن التاريخ سيخبر عنهم كما أخبر عمن سبقهم(18).

ومن جانب آخر فقد ضرب العلماء لنا صوراً مضيئة في التوازن وأخذ النفس على ما يلزم عندما يرون الانحراف والتساهل أو التشدد والتطرف؛ فترى الغزالي يأخذ نفسه تجاه جانب الزهد، وترى ابن تيمية يأخذ بالحزم وحمل النفس على الصدع بكلمة الحق وجهاد التتار، وترى الشاطبي يبين ضرورة التوازن والوسطية. وما هذه الأمثلة الثلاثة إلا أمثلة صحيحة، إلاّ أن كلاً منهما ملتزم بزمنه بقدر الحاجة إليه، كل مثال منها كان في زمنه ما تدعو له الحاجة لصنع التاريخ، والأخذ بزمام المبادرة.

ولنكن مع الشاطبي فيما يتبع.

رأي الشاطبي وما يؤخذ منه: "الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الأوسط الأعدل، الأخذ من الطريق بقسط لا ميل فيه، فإن كان التشريع لأجل انحراف المكاف، أو وجود مظنة انحرافه عن الوسط إلى أحد الطرفين، كان التشريع راداً إلى الوسط الأعدل، لكن على وجه يميل فيه إلى الجانب الآخر ليحصل على الاعتدال منه"(19).

ويدلل على ذلك بضرب أمثلة كثيرة فيقول: "أو لا ترى أن الله تعالى خاطب الناس في ابتداء التكليف خطاب التعريف بما أنعم عليهم من الطيبات والمصالح؟ كقوله تعالى: ﴿الذي جعلَ لَكُم الأَرض فراشاً والسماء بِنَاء وأَنزلَ من السماء ماء فَأَخْرج بِه من الثمرات رِزقاً لكُم فَلاَ تَجعلُواْ ِللّه أَنداداً وأَنتُم تَعلَمون﴾ (البقرة:22).

فلما عاندوا وقابلوا النعم بالكفران أقيمت عليهم البراهين القاطعة بصدق ما قيل لهم فلما لم يلتفتوا إليها لرغبتهم في العاجلة أُخبروا بحقيقتها وأنها في الحقيقة معدومة، فهي زائلة فانية. وضربت لهم الأمثال في ذلك كقوله تعالى: ﴿إِنما مثَلُ الْحياة الدنْيا كَماء أَنزلْنَاه من السماء فَاخْتَلَطَ بِه نَباتُ الأَرضِ مما يأْكُلُ الناس والأَنْعام حتى ِإذَا أَخَذَت الأَرض زخْرفَها وازينَتْ وظَن أَهلُها أَنهم قَادرون علَيهآ أَتَاها أَمرنَا لَيلاً أَو نَهارا فَجعلْنَاها حصيدا كَأَن لم تَغْن بِالأَمسِ كَذَلِك نُفَصلُ الآيات ِلقَومٍ يتَفَكرون﴾ (يونس:24) وكقوله تعالى: ﴿اعلَموا أَنما الْحياةُ الدنْيا لَعب ولَهو وزِينَةٌ وتَفَاخُر بينَكُم وتَكَاثُر في الأَموال والأَولَاد كَمثَل غَيث أَعجب الْكُفار نَباتُه ثُم يهيج فَتَراه مصفَرا ثُم يكُون حطَاما وفي الآخرة عذَاب شَديد ومغْفرةٌ من الله ورِضوان وما الْحياةُ الدنْيا ِإلاَ متَاع الْغُرورِ﴾ (الحديد:20).

ويعطي الشاطبي أمثلة على التوسط؛ بين التشدد في الامتناع عن الطيبات والإفراط في التمتع بها، وكذلك في الإنفاق؛ فهو وسط بين الإسراف والتقتير؛ يقول:" فإذا نظرت في كلية شرعية فتأملها تجدها حاملة على التوسط. وعلى هذا إذا رأيت في النقل عن المعتبرين في الدين من مال عن التوسط، فاعلم أن ذلك مراعاة منه لظرف واقع أو متوقع من الجهة الأخرى، وعليه يجري النظر في الورع والزهد، وأشباههما، وما قابلهما. والتوسط يعرف بالشرع، وقد يعرف بالعوائد، وما يشهد به معظم العقلاء، كما في الإسراف والإقتار من النفقات"(20).

ويلحظ من كلام الشاطبي، كيف أن "الاختيار" ليس أمراً ثابتاً، وإنما هو أخذ الاعتدال الخالي من الإفراط والتفريط، رغبة في إعادة التوازن، وهذا يجري على الضروريات الخمس التي هي مقاصد الشريعة: حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال"(21).

فالاختيار والتوازن والتحرك في ضوء شريعة الإسلام بين مشكلات الحياة أمر مستهدف مراد منه الصعود إلى مستوى أرفع.

من هذا كله لا بد من أن نفهم أن السنن والقوانين الإلهية متى طُبقت أثمرت نتائجها، فلا مجال للقول إذن –تواكلاً وتشاؤماً- إنه يجب أخذ فكرة من آية دون النظر لها في موضوعها، أو الحديث دون النظر له مع مجموعته. ولنأخذ مثالاً يبين ذلك من قوله ﷺ:" إن خيركم قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم"(22). فليس ذلك يمنع من وجود الخيرية فيما بعد ذلك، فالخيرية في الحديث نوعية تتعلق بالتشريع، والصحابة رضوان الله عليهم كانوا مثال التضحية والبذل، وهو مثال لا يتكرر له مثيل لأنه بداية الدعوة.

فالرسول ﷺ قال أيضاً: "مثل أمتي مثل المطر، لا يدرى أوله خير أم آخره"(23).

المطلب الرابع

خطورة سيطرة رأس المال على الحكم، وما يتبع ذلك من انحلال وسقوط

وهذا المطلب مرتبط بسابقه، فكلاهما يحمل التنبيه والتحذير من مغبة الظلم والإفساد، وبالإشارة إلى أن مقاليد الأمور بيد الله، يرفع ويخفض، ويعز ويذل، وينصر ويهزم، فهو ينصر أولياءه ليعز الحق بهم ويبتليهم، وينصر الظلمة ليربي الغافلين وينبههم، ولذلك نبه المؤمنين وفيهم نبيه ﷺ فيما جرى لهم في بداية غزوة حنين فقال جل شأنه ﴿لَقَدْ نَصرَكُمُ اللّه في مواطن كثيرة ويوم حنَينٍ إِذْ أَعجبتْكُم كَثْرتُكُم فَلَم تُغْنِ عنكُم شَيئًا وضاقَتْ علَيكُم الأَرض بِما رحبتْ ثُم وليتُم مدبِرِين. ثُم أَنَزلَ اللّه سكينَتَه علَى رسولِه وعلَى الْمؤْمنين وأَنزلَ جنُودا لم تَروها وعذب الذين كَفَرواْ وذَلِك جزاء الْكَافرِين﴾ (التوبة:25-26).

كما نبه سبحانه وتعالى على أن المعاصي تذهب بالنعم، وأن الرجوع والتوبة سبب صلاح الحال والمآل فقال مخبراً عن أصحاب الجنة: ﴿فَطَافَ علَيها طَائِفٌ من ربك وهم نَائِمون. فَأَصبحتْ كَالصرِيمِ. فَتَنَادوا مصبِحين. أَنِ اغْدوا علَى حرثكُم إِن كُنتُم صارِمين. فَانطَلَقُوا وهم يتَخَافَتُون. أَن لَّا يدخُلَنها الْيوم علَيكُم مسكين. وغَدوا علَى حرد قَادرِين. فَلَما رأَوها قَالُوا إِنا لَضالون. بلْ نَحن محرومون﴾ (القلم:19-27).

وفي هذا كله تنبيهات وتحذيرات لأولي البصائر، تؤخذ منها العبر في صناعة التاريخ، وسياسة الأمة، والسير على بر الأمان، فإن ما عند الله لا ينال بمعاصيه ولكن بطاعته، وإن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه.

المبحث الثاني

عوامل البناء وصنع التاريخ المشرف

قد يصنع التاريخ بالمعجزات ومدد السماء وهذا النوع من صناعة التاريخ قد رافق دعوات الأنبياء عليهم السلام، وأما النوع الثاني الذي فيه صون للكرامة وعشق للعزة والتقدم والقيادة ووصول إلى بر السلامة فهو معتمد على أسس سليمة وقواعد قوية سأبينها في المطالب التالية:

المطلب الأول

التوحيد والوحدة

وهذا يتجلى بالمزاوجة بين الزمان والمكان والأشخاص

قال الله تعالى: ﴿واعتَصمواْ بِحبل اللّه جميعا ولاَ تَفَرقُواْ واذْكُرواْ نعمةَ اللّه علَيكُم إِذْ كُنتُم أَعداء فَأَلفَ بين قُلُوبِكُم فَأَصبحتُم بِنعمته إِخْوانًا وكُنتُم علَى شَفَا حفْرة من النارِ فَأَنقَذَكُم منْها كَذَلِك يبين اللّه لَكُم آياته لَعلكُم تَهتَدون﴾ (آل عمران:103).

وقال سبحانه: ﴿إِن هذه أُمتُكُم أُمةً واحدةً وأَنَا ربكُم فَاعبدونِ﴾ (الأنبياء:92).

وقال عز وجل: ﴿لِإِيلَافِ قُريشٍ. إِيلَافهِم رِحلَةَ الشتَاء والصيف﴾ (قريش:1-2).

والتوحيد والوحدة لهما أسس يقومان عليها؛ أعظمها طاعة الله وعبادته. وطاعة الله لا تكون مقبولة حتى يتحقق الإخلاص كما قال تعالى: ﴿وما أُمروا إِلا لِيعبدوا الله مخْلصين لَه الدين حنَفَاء ويقيموا الصلَاةَ ويؤْتُوا الزكَاةَ وذَلِك دين الْقَيمة﴾(البينة:5). ويضاف إلى الإخلاص أن العبادة والطاعة لا تكون مقبولة إلا أن تكون من مشكاة النبوة قرآناً وسنة، فالتشريع لله وحده سبحانه.

المطلب الثاني

الاقتصاد

وهذا يتجلى بالمزاوجة بين الإنسان والمال

ويتحقق هذا بأمرين؛ الوحدة، والحركة. قال تعالى: ﴿لإيلاف قريش. إيلافهم رحلة الشتاء والصيف﴾. ففي هذه الكلمات الوجيزة يشْهد لهاشم بأنه صاحب فكرة التوحيد بين

الناس وتأسيس رحلتي التجارة، وهو ما ألفته قريش. وهذا الفكر -بحد ذاته- يدل على علم الرجل، وعمق تفكيره، فقد سن لقومه دستورا تزيد فيه أرزاقهم، ويقوى فيه اقتصادهم، فسيطر بذلك على التجارة البرية، فصارت الجزيرة العربية تابعة لهم، لحاجتها إلى الغذاء، وسد العوز، وهذا ما لا تستغني عنه دولة حديثة؛ إذ إن تنمية الاقتصاد في هذه الأيام من أشد أسباب القوة، وإن السيطرة على الاقتصاد تجاب السيطرة على العالم كله دون قتال أو سفك دماء.

أسباب الحركة ﴿رحلة الشتاء والصيف﴾

إن السفر بحد ذاته قطعة من العذاب، لشدة الحركة، والتنقل في البلدان، وتجشم الصعاب، وتحمل المخاطر المالية والنفسية والجسدية؛ إلاّ أن لكل شيء ثمناً من أجل سعادة الفرد، وازدهار الأمة، وحفظ ماء الوجه والكرامة.

فقد كانت تجارة قريش في الرحلتين، رحلة اليمن في الشتاء، التي يتجنبون خلالها برد الشام وثلوجه، ورحلة الصيف إلى الشام، التي يتجنبون فيها حر اليمن وسمومه، كانت هذه التجارة هي رحلة جلب الطعام واللباس، وأنواع البضائع المختلفة، التي يسعد أهل الجزيرة بها، ويأمنون شر الجوع والعري والفاقة.

المطلب الثالث
العبادة والتقوى
وهذا يتجلى بالخضوع والطاعة وعدم الخروج عن الثوابت

تتجلى طاعة الله تعالى في قوله: ﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾ وأساسها التوحيد الخالص المجرد له.

إن هذا الأمر الرباني بعبادة رب البيت (من بعض منن الله تعالى) هو منّة من الله بها على قريش، وهو بعد ذلك التاريخ وإلى يومنا هذا أمر موجه لكل مسلم، فهو مطالب بعبادة الله تعالى، لأن من عبد الله حق العبادة رعاه الله ونصره وأيده وأمده ودافع عنه؛ ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾(24). ويقول المصطفى ﷺ عن ربه ﷻ: "وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه(25)..."

وأن تذكر تاريخ الماضين، من العصاة والمارقين، وما أصابهم من رجز(26)، أو مسخ(27)، أو ريح(28)، أو خسف(29)، أو صاعقة(30)، أو غير ذلك، لدليل كاف لأصحاب العبرة، ليرجعوا إلى طاعة الله قبل فوات الأوان. ومن طاعة الله تعالى الأخذ بالأسباب؛ إن الله تعالى جعل لكل شيء سببا، وعلم عباده ربط السبب بالمسبب، ولذلك لا بد من فهم هذه القاعدة الربانية التي لا تتخلف في حال، وسورة قريش دلت على أسباب يمكن استجلاؤها، والتفكر فيما وراءها.

المطلب الرابع
الحصانة الغذائية والأمنية وهذا يتجلى بالمزاوجة بين كل ما تقدم مع التوكل على الله

يقول ﷻ: ﴿الذي أطعمهم من جوع﴾ هذه منة من الله على كل من يعقل ويفهم، فهي منته سبحانه على قريش التي كانت تعيش بواد غير ذي زرع(31) لكنها صارت تماك الثمر بجميع أنواعه. وصارت تأتيها الوفود والقبائل تشتري وتمتار، فتهواها(32) القلوب؛ ومن لا يهوى الطعام والشراب، ويهوى المال والمتاع؟

وفي الأمن يقول ﷻ: ﴿وآمنهم من خوف﴾، فقد أمنت قريش على نفسها، وأهلك الله عدوها، وخشيتها القبائل، كيف لا؟ ورب البيت يدافع عن بيته، ويحطم جيش أبرهة الأشرم، ويمزق شمله، ويستأصل شأفته، بعد أن ذاق مرارة الموت، وخزي الهزيمة، وسقوط الحجة.

إن ذلك جعل القبائل تحترم قريشا وتهابها، فلا عدو يضرها، ولا قاطع طريق تراوده نفسه في قطع الطريق على أرزاق قريش التي تصل منفعتها لكل الناس بيعا، ووفادة، ورفادة، وغير ذلك.

فاجتمع لقريش أمور لا تجتمع لأمة إلا وسادت، فجودة التخطيط، والعلم والخبرة، والسيطرة على الاقتصاد، ومعرفة سياسة التجارة، وكسر شوكة العدو، وحصول الأمن الغذائي، والأمن من الأعداء، كل ذلك جعل من قريش قبيلة، تمثل دولة.

الخاتمـة والنتائـج

مما تقدم في ثنايا البحث يتبين للقارئ كيف اعتنى القرآن بأمور التاريخ، وتدوين الركائز والأسس، والعناصر التي يعتمد عليها الإنسان في صناعة التاريخ المجيد. ومعلوم أن محاكاة القرآن في أي جانب من جوانبه أمر محال؛ إذ هو الإعجاز بعينه، لكنه مع ذلك ينير الدرب، ويستنهض الضعيف، ويرشد الحائر، ويطمئن اليائس بأسلوب الكمال الرباني.

فقد تناول الباحث مناحي عديدة حول المقصود بصناعة التاريخ، وعوامل الهدم والسقوط، والترف في العيش وعلاقته بالحكم، وتجلية رأي ابن خلدون ورأي الشاطبي حول ذلك، وخطورة سيطرة رأس المال على الحكم، وما يتبعه من

انحلال وسقوط. وعوامل البناء وصنع التاريخ المشرف؛ كالتوحيد والوحدة، وهذا يتجلى بالمزاوجة بين الزمان والمكان والأشخاص. والتمكن من امتلاك الاقتصاد القوي، وهذا يتجلى من خلال المزاوجة بين الإنسان والمال. والعبادة والتقوى، وهذا يتجلى بالخضوع والطاعة وعدم الخروج عن الثوابت. والحصانة الغذائية والأمنية، وهذا يتجلي بالمزاوجة بين كل ما تقدم مع التوكل على الله.

هذا إضافة إلى اكتشاف الدستور الرباني في نيل العزة والكرامة من خلال تفسير سورة قريش تفسيراً حديثاً لا يتعارض مع تفاسير الماضين، ولا يغفل عن استنباط أسرار الآيات، وعوامل فهم الحكم الربانية، والوصول إلى الأهداف المنشودة بأقصر الطرق وأشرفها.

وبهذا يتحقق حفظ الضروريات الخمس التي عليها مدار مقاصد الشريعة؛ الدين، والعقل، والنفس، والنسل، والمال، وقد أدى ضياع ريح المسلمين إلى ضياع هذه الضروريات.

ومن سورة قريش تستمد مواد الدستور الذي نحتاجه اليوم: الوحدة، وقوة الاقتصاد، والإخلاص في عبادة الله تعالى، والأمن الغذائي، والأمن العسكري.

الهوامش

(1) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، 7/1-8.

(2) المصدر السابق.

(3) ابن خلدون، المقدمة، 209/1.

(4) انظر ما قاله المحقق لتاريخ الرسل والملوك في المقدمة،21/1.

(5) تفسير ابن كثير عند ذكر الآية. ج 2، ص 316.

(6) تفسير السعدي عند ذكر الآية. ج5 ص198-199.

(7) أضواء البيان عند الكلام على الآيات، ج 2، ص 93.

(8) القرطبي عند الكلام على الآية، م 10، ص 108.

(9) تفسير البغوي عند ذكر الآية.

(10) مسند الإمام أحمد ج2 ، رقم: 257، 395، 418، 496 وابن ماجة كتاب الزكاة رقم 25.

(11) البخاري، كتاب الاعتصام 10، ومسلم، كتاب الإيمان: 247، وكتاب الإمارة: 170، 173، 174، وابن ماجة المقدمة1، وكتاب الفتن 9.

(12) مسلم كتاب الإيمان: 247، وكتاب الإمارة:170، 173، 174؛ والترمذي كتاب الفتن: 27، 51؛ وابن ماجة المقدمة1، وكتاب الفتن 9.

(13) البخاري كتاب الاعتصام 10، ومسلم كتاب الإيمان: 247، وكتاب الإمارة:170، 173، 174

(14) ابن ماجة المقدمة 1 وكتاب الفتن9.

(15) تفسير الطبري، م8، ص53.

(16) تفسير السعدي، ج6، ص286.

(17) المقدمة، ج1 ص 209.

(18) السيوطي: الإتقان. دراز، مدخل إلى القرآن الكريم، ص39-40. السباعي: السنة ومكانتها في التشريع، وفي الفصل الثاني، ص 90-102 بيان لجهود العلماء في مقاومة حركة الوضع، والفصل الرابع في ثمار هذه الجهود، ص 103-123 مع عناية بعلوم الحديث ملخص فيها ما ذكره الإمام النووي في كتابه "التقريب". وانظر التبريزي: مشكاة المصابيح، ج1، ص 78، حديث رقم: (228). وانظر تيسير الوصول: لابن الديبع الشيباني، ج3، ص205. وانظر الغمراوي، الإسلام في عصر العلم، ص1-9، الفصل الأول:الإسلام والفطرة. وانظر قصة الحضارة: ويل ديورانت، ترجمة الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية بالقاهرة، يدرس العناوين: 1- أحوال الحضارة. 2- العوامل الاقتصادية. 3- السياسة. 4- الأخلاقية. 5- العقلية. وانظر تفسير التاريخ: عبد الحميد صديقي، ترجمة ناظم الجواري. وانظر التفسير الإسلامي للتاريخ. وانظر مصطلح التاريخ: أسد رستم، (واعتنى بنقد الأصول وتحري الحقائق التاريخية وعرضها وايضاحها وما يقابل ذلك في علم الحديث). وانظر: عثمان، منهج البحث التاريخي: (وفيه بيان لمناهج المسلمين في التحقيق). Will Durandt: The Story of Civilisation., Part1 ‘Our Oriental Herritage, ch 1-5 PP 1-89. Mazhruddin Siddiqi: The Qur’anic Concent of History, Islamic Research Institute, Pakistan, Distributed by Oxford University Press, 1995.

(19) الموافقات، ج2، ص163 وما بعدها.

(20) الموافقات، ج2، ص167-168.

(21) المصدر السابق، ج2، ص8-12.

(22) مختصر صحيح مسلم للمنذري: حديث رقم 1743.

(23) مشكاة المصابيح، ج3، ص293، رقم 6277. وانظر مالك ابن نبي: الظاهرة القرآنية، مدخل إلى دراسة الظاهرة القرآنية، ص 54-60.

(24) سورة الحج: الآية 38.

(25) رواه البخاري، وهو من الأربعين النووية.

(26) كقوله تعالى: ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك... الآية.

(27) كقوله تعالى: وجعل منهم القردة والخنازير... الآية.

(28) كقوله تعالى: بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب... الآية.

(29) كقوله تعالى: فخسفنا به وبداره الأرض... الآية.

(30) كقوله تعالى: مثل صاعقة عاد وثمود... الآية.

(31) إشارة إلى قوله تعالى: رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم... الآية

(32) إشارة إلى قوله تعالى: واجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

الأربعون النووية.

ابن نبي، مالك، الظاهرة القرآنية، مدخل إلى دراسة الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، 1968م، دار الفكر، بيروت.

الإمام أحمد، المسند، بشرح أحمد بن محمد شاكر، مطبعة دار المعارف، مصر، القاهرة، ط2، 1369هـ/1950م.

ابن خلدون، 1399/ 1979، المقدمة: مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت.

ابن كثير، تفسيره، طبعة دار المعرفة، 1388هـ/1969م.

ابن خلدون، مقدمته: تحقيق علي عبد الواحد وافي، 1957، طبع البيان العربي، القاهرة.

ابن ماجة، سنن ابن ماجة، ت: هـ375، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة.

البخاري، صحيح البخاري، مع شرحه فتح الباري، ت: 256هـ، والشرح لأحمد بن حجر العسقلاني، المطبعة السلفية، القاهرة.

التبريزي، مشكاة المصابيح، مكتبة التراث الإسلامي، حلب، طباعة المكتب الإسلامي دمشق،1382هـ/1962م.

التبريزي، مشكاة المصابيح، طبع المكتب الإسلامي بدمشق، 1380هـ/1961م.

التفسير الإسلامي للتاريخ، دار العلم للملايين: بيروت 1978م.

الترمذي، سنن الترمذي، تحقيق محمد أحمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت.

الحاكم، المستدرك.

الدارمي، سنن الدارمي، 181-255هـ، مطبعة دار المحاسن، القاهرة، 1386هـ/ 1966م.

ديورانت، ويل، قصة الحضارة، ترجمة الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية بالقاهرة، العناوين: 1-أحوال الحضارة. 2- العوامل الاقتصادية. 3- السياسية. 4- الأخلاقية. 5- العقلية.

دراز، محمد عبد الله، مدخل إلى القرآن الكريم، الفصل الثاني، دار القلم.

رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، دار المعرفة، الطبعة الثانية.

رستم، أسد، 1955م، مصطلح التاريخ، المكتبة العصرية، صيدا وبيروت.

الساعاتي، أحمد بن عبد الرحمن، 1371، الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني: مطبعة الإخوان المسلمين، ط1، القاهرة.

السباعي، مصطفى، 1398، 1978، السنة ومكانتها في التشريع: طبع المكتب الإسلامي بدمشق وبيروت.

السعدي، عبد الرحمن، تفسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق محمد زهري النجار، المؤسسة السعيدية بالرياض.

السيوطي، الإتقان في علوم القرآن.

السيوطي، الجامع الصغير.

الشاطبي، شرح عبد الله دراز ومحمد عبد الله دراز، ط. التجارية، القاهرة، أعادت تصويره: دار المعرفة، بيروت لبنان (بدون تاريخ).

الشنقيطي، محمد أمين، 1386، 1967، تفسير أضواء البيان، مطبعة المدني.

الشيباني، ابن بديع، تيسير الوصول، ج3، ص205، طبع البابي الحلبي، القاهرة، 1970م.

صديقي، عبد الحميد، تفسير التاريخ، ترجمة ناظم الجواري، 1400هـ - 1980م، دار القلم بالكويت.

الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك: طبعة المعارف، القاهرة.

الطبري، ابن جرير، 1420، تفسيره.

عبد الباقي، محمد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الفكر للطباعة والتوزيع.

عبد الباقي، محمد بن الشيخ، ت:1132هـ، شرح الزرقاني على الموطأ، مطبعة مصطفى الحلبي، 1355هـ.

عثمان، حسن، 1970، منهج البحث التاريخي، طبعة ثالثة منقحة، دار المعارف القاهرة.

الغمراوي، محمد أحمد، 1393، 1973، الإسلام في عصر العلم "الإسلام والفطرة"، طبع دار الإنسان: القاهرة.

القرطبي، محمد بن أحمد، تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن، دار الكتاب العربي: القاهرة، 1387 هـ/1967م.

كامل، عبد العزيز، 1404، 1984، القرآن والتاريخ، دار البحوث العلمية، الطبعة 1، الكويت.

مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم - بشرح النووي، المطبعة المصرية، القاهرة، ط1، 1349هـ/1930م.

مختصر صحيح مسلم.

النسائي، سنن النسائي، 214-303 هـ، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة.

وجدي، محمد فريد، دائرة معارف القرن العشرين، المجلد الثاني، ط3، دار المعرفة، 1971.

آبادي، محمد شمس الحق العظيم، عون المعبود بشرح سنن أبي داود، الناشر: محمد عبد المحسن، المدينة المنورة.

Mazhruddin Siddiqi: 1995. *The Qur'anic Concept of History*, Islamic Research Institute, Pakistan, Distributed by Oxford University Press.

Will Durandt. *The Story of Civilization*, Part1,'Our Oriental Heritage', ch 1-5:1-89.

Designing History from Qur'anic Point of View
"Building States and Reasons of Destruction"

Amin M. Al-Manasyeh*

ABSTRACT

This research aims to find treatments for the Islamic Nation's situation these days so as to recover and stand again gaining its glory and nobility.

The writer draws the reasons of the loss and degradation which the Islamic Nation suffers from, derived from past incidents and consequences.

Moreover, he suggests the means of treatment for the nation's revival so as to re-organize itself, all supported by scholars' opinions as Shatibi and Ibn Khaldoon.

In this research, the writer puts his own constitution for treatment and reform, drawn from Surat Quraish.

---

* Faculty of Shari' a, Mu'tah University, Al-Karak, Jordan. Received on 6/3/2005 and Accepted for Publication on 5/12/2005.